بيرم التونسى

١٨٩٣ ـ ١٩٦١

بقلم: د/ محمد زكى العشماوى

محمود بيرم التونسى، من الأعلام البارزين، فى حياتنا المعاصرة على المستويين الشخصى والفنى على السواء، فحياته تعتبر مثلاً للبطولة والتضحية والكفاح والصمود، أما فنه فظاهرة فريدة فى الشمول والتنوع وروعة الأداء، وتتسم لغته بالفكاهة والدعابة والسخرية، فكثيراً ما تعتمد دعابات بيرم على المفارقات الكثيرة فى الحركات الذهنية، وفى المفارقات الإنسانية والنفسية، وذلك حين يوجه نقده اللاذع، أو حين يضبط شخصية وهى تغالط نفسها، لتهرب من مواجهة موقف، أو حين تتوارى عن الحقيقة، أو تدعى فضلاً ليس لها، أو تنكر سيئة أو خطأ تقع فيه، وفى كل هذا نماذج فريدة من القصائد الزجلية بلغة عامية صريحة، وساخرة فى الوقت نفسه.

وعين بيرم الناقدة من العيون الحادة البصيرة، عين مفتوحة وواعية فاحصة لا تفوتها حركة ولا يند عنها لون، وهى تستعرض الحياة والمناظر والنفوس والأشياء، ولا تشبع من النظر، ومن التقاط هذه الدقائق فى يقظة وانفعال.

أما مواقفه الوطنية، فجميعها مواقف وطنية بطولية شجاعة، لا يخاف سلطانا ولا استعمارا، ولا يعمل حساباً إلا لضميره، ورأيه الحر النابع عن مبدأ وعقيدة.

لذلك كان فى كل مواقفه الوطنية، كاشفاً عن حقائق حادة عميقة، لايعرف فيها هوادة أو ليونة أو مواراة.. يلقى على الناس فيها توجيهات فنية

بالصدق والحق، يعتمد فيها على موهبة.. خالصة، تعتمد على الذكاء، والنكتة، واللمحة، وروح الفكاهة، والمزاح، والسخرية، معرضاً نفسه أحياناً إلى أشد المخاطر وإلى أسوأ العواقب، ومع ذلك يقف صامداً مناضلاً فى شموخ.

ولنستعرض الآن بعضاً من حياته المليئة بالبطولة، والمتسعة بجدية الحقيقة وسخريتها، وأروع ما فى هذه الحياة، مواقفه الجريئة التى يطارد بها الزائف ولاحقه فى جميع دروبه ومسالكه والدخول إليه فى سراديبه ومخابئه، ثم تسديد السهام إلى صدره.

وُلد محمود بيرم التونسى عام ١٨٩٣ بعد ثلاث سنوات من نزوح والده بيرم التونسى بأسرته إلى مدينة الإسكندرية، وبعد أن توطن فيها وأقام فى حى السيالة، وكان نزوح والده من مدينة تونس، فراراً من الاضطهاد والظلم اللذيْن يتعرض لهما الأحرار هناك.

تعلم محمود بعد ذلك مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ سوراً من القرآن الكريم، وكان أبوه يلتقى فى بيته بنخبة من علماء الأزهر، يجالسهم ويستمع إليهم، وكان الفتى الصغير محمود، يشارك فى هذه الجلسات، فتعلم والتقط الإحساس باللغة والأدب وحفظ الأشعار، كما ساعدت الدروس التى كان يستمع إليها، فى مسجدى أبى العباس المرسى، والبوصيرى على الاستفادة والتزود بالمعارف العربية والإسلامية. ولكنه سرعان ما أراد أن يعينه على أنه يعمل بالتجارة ويفتح دكاناً للبقالة، وحاول إقناع أبيه وأمه وقدم لهما مبلغاً صغيراً من المال قد ادخره، واقتنع أبوه على مضض، فقد كان يطمع أن يعلمه فى الأزهر الشريف، وأن يراه عالماً مرموقاً.

واستطاع الفتى أن يحول دكانه الصغير إلى ملتقى للأدباء، وكانت مجالسهم منتدى يعرضون فيه لقضايا السياسة، والفن، والأدب.

وعندما قامت الحروب العالمية الأولى عام ١٩١٤ كان الحديث فى مجالس بيرم وزملائه الأدباء، يدور حول ما يعانيه الناس من وطأة الحكم، والظلم الذى يقع على المواطنين، وما تفرضه الحرب والمستعمر من قيود لا يتحملها الكثيرون، فبدأ الناس يجأرون بالشكوى من معاملة المجلس البلدى، الذى كان قاسياً فى معاملة جمهور الإسكندرية.

فكانت باكورة أعمال بيرم، تلك القصيدة المشهورة التى فتحت أعين الناس على فنه، فبدأوا يرون فى بيرم فناناً حقيقياً، وذلك حين اشتهرت قصيدته فى «المجلس البلدى» التى انتشرت وحفظها الناس، وأخذوا يرددونها ويترنمون بها فى مجالسهم، والقصيدة معروفه حتى الآن، ومطلعها يقول:

يا بائع الفجل بالميم واحدة

كم للعيال وكم للمجلس البلدى

وهى قصيدة طويلة، تنتهى أبياتها بكلمة المجلس البلدى، وقد أنبأت بمقدرة الشاعر، ومهارته الفنية فى مطلع حياته.

وفى هذه الفترة، التقى بيرم بالشيخ سيد درويش وألف له عدة أوبريتات أشهرها، «أوبريت شهرزاد» و«البروكة» وغيرهما، كما ألف له مقطوعات غنائية منها:

ضيعت مستقبل حياتى فى هواك

وازداد علىَّ اللوم وكتر البغدده

وأغنية:

أنا عشقت وشفت غيرى كتير عشق

عمرى ما شفت المر اللى فى هواك

وعند قيام ثورة ١٩١٩ واشتداد التذمر والهجوم على المستعمر، أنشأ بيرم صحيفة «المسلة» وأخذ ينشر فيها العديد من الأزجال والانتقادات للاحتلال، ولم يُقَدَّر أن يستمر نشاط الصحيفة، فقد أوقفتها سلطات الاحتلال، فأنشأ صحيفة أخرى باسم «الخازوق» ولم تصدر أكثر من عددين، ثم عطلتها السلطات، كذلك انتقل بعدها بيرم إلى القاهرة، حيث وجدها أرحب لنشاطه.

وهناك واصل بيرم حملته الفنية بلا هوادة، ضد سلطات الاحتلال والاستعمار، جعلت النار تزداد اشتعالاً، مما دفع السلطات إلى السعى لدى الإنجليز حتى صدر الأمر بنفى بيرم التونسى، ونفذ الأمر فى ليلة عيد الأضحى الموافق ٢٥/٨/١٩٢٠.

واقتيد بيرم عنوة إلى سفينة فى الصباح الباكر حملته إلى مرسيليا، وهناك عاش فترة من الزمن، مع الحمالين والعمال، من أبناء تونس والجزائر والمغرب وغيرهم، وعانى كثيراً فى هذه الفترة من حياة الشظف، والفقر، وضيق الحال.

ولكنه مع ذلك، كان يراسل الصحف فى القاهرة، يبعث لها بأزجاله، ومقاماته، ونظراته فى الحياة، حتى إنه كان يحرر جريدة الشباب كلها من ألفها إلى يائها.

وبعد عام حاول الهروب من منفاه، فاشتغل عاملاً على ظهر سفينة مبحرة إلى الإسكندرية، ونزل خلسة من السفينة فى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة، وظل ستة أشهر يتنقل من مكان إلى آخر، ويتزوج فى هذه الأثناء من امرأة تؤنس وحدته، ولكن الحظ لا يواتيه، فيكتشف أمره ويرحل إلى مارسيليا مرة أخرى، حيث يعاود حياة الشقاء والعنت والفقر مرة أخرى.

ويقضى بيرم عشرين عاماً فى المنفى، وفى عام ١٩٣٨ رحل إلى بيروت وحملوه مرة أخرى إلى مركب مسافرة إلى مارسيليا، إلا أنه استطاع أن يهرب عنها ظهر يوم

٦ مايو ١٩٣٨ حين رست السفينة فى بورسعيد، وقد وصف هذا بقوله:

غلبت أقطع تذاكر   وشبعت يارب غربه

بين الشطوط والبواخر   وبين بلادنا وأوروبا

وقلت ع الشام أسافر   إياك ألاقى لي تربه

والقصيدة طويلة ورائعة، ومنها يصور ما عاناه فى منفاه ورحلاته، من صور الضيق، والألم، ومشاعر الغربة. والحنين، إلى مصر.

واستقر فى مصر منذ ذلك التاريخ حتى وفاته فى الخامس من يناير ١٩٦١.

أما أعمال بيرم فى تلك الفترة وما قبلها، فهى مثال للإنتاج الغزير المتعدد الجوانب، فإلى جانب أشعاره وقصائده الزجلية، كان لبيرم أعمال فنية كثيرة، فقد ألف الروايات التمثيلية والأغاني الشعبية، وألف للسينما روايات رابحة وغيرها وللمسرح عزيزة ويونس، وكتب للإذاعة مئات من القطع والمسلسلات، وعكف على تأليف ملحمة محمد على بتكليف من وزارة الشئون الاجتماعية.

كما عارض كبار الشعراء، بقصائد على وزن قصائدهم، فى شعر فصيح.

أما مقامات بيرم، فقد بلغت مائة وستين مقامة، وهى وحدها تعتبر ثروة كبيرة، تحتاج إلى دراسة خاصة، تحدد ملامحها، وتكشف عما فيها من قيم فنية، وحقائق اجتماعية وسياسية.

هذه هى لمحة سريعة عن حياة رجل عظيم من عظماء المعاصرين، تعتبر صفحة مشرفة وسجلاً حافلاً بالإبداع والإمتاع.

■ ■ ■